

مَقُومَات تَدْبِرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَمُعَوَّقَاتِهِ

د. باي زكوب عبد العالي

جامعة المدينة العالمية - ماليزيا

الملخص:

مما لا شكَّ فيه أنَّ إنزال القرآن الكريم يُعَدُّ مِنَّةً عظُمتْ على هذه الأُمَّة المباركة، فكان المقصد الأسنى من إنزاله هو صلاح الأحوال الفردية والجماعية، وصلاح العمران والبناء، وإنَّما يكون ذلك بالنظر في آيات الله عزَّ وجلَّ في كتابه، والوقوف على مقاصدها القريبة والبعيدة تأملاً وتفكيراً ليعرفَ ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة مصداقاً لقوله جلَّ وعزَّ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، إلَّا أنَّ الناظر في واقع الأُمَّة الإسلامية يجد أنَّ عامَّة أفرادها قد هجروا تدبُّر القرآن الكريم مما جعلها تتخبط في مشاكل لا نهاية لها متقلِّبة ذات اليمين وذات الشمال بحثاً عن مخرج لهذه المآزق التي حلَّت بها في شتى مناحي الحياة، وإيماناً منَّا واعتقاداً أنَّ القرآن الكريم هو المأوى الوحيد لحلِّ مُعْصَواتِ الأُمَّة الإسلامية ومآزقها مصداقاً لقوله جلَّ في علاه: ﴿الرَّكْتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]، فإنَّ هذه الدِّراسة قد هدفت لرسم العوامل الأساسية التي بها تقوم عملية تدبُّر القرآن الكريم، وبذلك نستطيع أن نتعرف على كثير من الشواغل والصَّوارف والمثبطات التي تحول دون تحقيق عملية تدبُّر القرآن الكريم، وقد كان المنهج الاستقرائي التحليلي أداتنا للبحث في مقومات تدبُّر القرآن الكريم ومعوقاته، وقد توصَّل البحث إلى أربعة مقومات أساسية، وهي: 1. حضور القلب مع كمال المعرفة 2. قدر من الفهم للآيات المتلوَّة أو المسموعة 3. القراءة بترتيل 4. الاستماع بإنصات، وفي مقابل ذلك فقد توصَّل البحث أيضاً إلى أربعة معوقات رئيسة، وهي: 1. غياب القلب، 2. غياب الفهم، 3. غياب الترتيل، 4. غياب الاستماع بإنصات، وأوصت الدِّراسة في نهاية المطاف بضرورة إحياء عملية تلاوة القرآن الكريم وتدبُّره على مستوى الفرد والجماعة، وتفهم معانيه مع التأثير بها، والعمل على فعل أوامره، وترك نواهيه، والتنوُّر بهداياته وإلهاماته، والدعوة إلى تعاليمه على بصيرة، والجهاد به جهاداً كبيراً لا يخالطه فتور.

Abstract:

There is no doubt that the revelation of the noble Qur'Ēn is a great blessing on this blessed nation. The ultimate goal of its revelation is the goodness of the individual and society, and the goodness of the building of the earth. Rather, this is by looking at the verses of Allah in his book and standing on its purposes. To know the correct interpretations and the derived meanings according to what Allah mentioned in his book: (A blessed Book that We sent down to you, that they may ponder its

Verses, and for those with intelligence to take heed [Saad: 29], but if we look at to the reality of the Islamic nation we find that the general Individuals of Muslim Ummah have abandoned the pondering in the Qur'Ēn which caused a lot of problems in various aspects of life, and since we believe that the noble Qur'Ēn is the only Shelter to resolve the troubles of the Islamic nation and its disadvantages in accordance with the Almighty: (Alif, Lam, Ra. A Scripture that We revealed to you, that you may bring humanity from darkness to light-with the permission of their Lord-to the path of the Almighty, the Praiseworthy) [Ibrahim: 1], this study was aimed to draw the main factors that are the process of the pondering the noble Qur'Ēn, and so we can recognize many of the obstacles that prevent Achieving the process of reflection. The analytical inductive method has been our tool in this research. The research has reached four basic elements: 1. The presence of the heart with the perfection of knowledge, 2. Understanding of the recited verses or listened, 3. Reading with recitation, 4. Listening with attention. In addition, the research found four main obstacles: 1. Absence of the heart, 2. Absence of the understanding, 3. Absence of recitation, 4. Absence of listening with attention. Finally, the study recommended the necessity of reviving the process of reciting and pondering the noble Qur'Ēn Individually and collectively, understanding its meaning and being influenced by it, Working to carry out its orders, leaving its prohibitions, The call to his teachings with knowledge, and strive with al-Qur'Ēn, a mighty struggle without tepidness.

1. المقدمة

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديّه، أمّا بعد، فتدبر القرآن الكريم واجب على كلّ البشر مسلمهم، ومناققهم، وكافرهم، ومشرّكهم على امتداد البعدين الزماني والمكاني، فقد أنزل الله علينا القرآن وأمرنا بتدبره لهدايتنا وإرشادنا إلى خيرى الدنيا والآخرة، لذا فقد حثنا ربنا سبحانه على هذا الأمر في أربعة مواضع متفرقة من القرآن الكريم، ففي الموضع الأول قال ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، قال ابن جرير الطبري في تفسيرها: " أفلا يتدبر المبيّتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لاتساق معانيه وائتلاف أحكامه وتأييد بعضه بعضا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق؛ فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه وتناقضت معانيه وأبان بعضه عن فساد بعض"؛¹ وفي الثاني قال ﷺ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 68]، قال ابن كثير في تفسيرها: " يقول تعالى منكرا على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آبائهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم"؛²

وفي الثالث قال ﷺ: ﴿كَتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، قال ناصر الدين البيضاوي في تفسيرها: "لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ لِيَتَفَكَّرُوا فِيهَا فَيَعْرِفُوا مَا يَدْبُرُ ظَاهِرُهَا مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَعَانِي الْمُسْتَنْبِطَةِ. وَقَرَأْ «لِيَتَدَّبَّرُوا» عَلَى الْأَصْلِ وَ«لَتَدَّبَّرُوا» أَي أَنْتَ وَعِلْمَاءُ أُمَّتِكَ"³؛ وفي الرابع قال ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ [محمد: 24]، ويقول البيضاوي في تفسيرها: "أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ يَتَصَفَّحُونَهُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالزَّوْاجِرِ حَتَّى لَا يَجْسُرُوا عَلَى الْمَعَاصِي. أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا لَا يَصِلُ إِلَيْهَا ذِكْرُهَا وَلَا يَنْكَشِفُ لَهَا أَمْرٌ"⁴؛ إضافة إلى آيات أخرى جاءت تحضُّ على مسألة التدبُّر دون التصريح بلفظ التدبُّر، وقد عبَّر عنه بألفاظ أخرى كثيرة تناسب والسياق الذي سيقت له كما هي عادة القرآن الكريم، فمثلاً قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: 17]؛ وقوله ﷺ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]، وقوله ﷺ: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]، وقوله ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] وغيرها من آيات كثيرة قد حثَّت على تدبُّر كتاب الله عزَّ وجلَّ وتفهم معانيه، ولا يخفى علينا أيضاً أنَّ السَّنة النبوية الصحيحة قد حثَّت على أهميَّة تلاوة القرآن الكريم وتدبُّر آياته واستنباط عظائمه وعبره وتدارسها جماعياً لتعمَّ الفائدة، ففي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»⁵.

2. مفهوم تدبُّر القرآن الكريم وأهميته

يجمل بنا قبل أن يأخذنا الحديث عن مفهوم التدبُّر وأهميته، أن نبين للقارئ أهم الفروقات الواردة بينه وبين التفسير، فالتفسير من القُسر، وهو البيان والإيضاح والإظهار والكشف، بينما التدبُّر من دَبَر، وهو أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها، هذا والفرق بينهما ظاهر من ناحية اللِّغة، ومن هنا فتدبُّر القرآن يكون بتأمُّل بعض آياته التي استوقفت التالي تلاوة أو سماعاً، ثم الاتِّعَاض بعدها ائتماراً وانزجاراً، وهو لا يحتاج إلى شروط كثيرة، اللهمَّ إلا: حضور القلب، وقدر من الفهم للآيات المتلوَّة والمسموعة، والقراءة بترتيل، والاستماع بإنصات، بينما تفسير القرآن الكريم يكون ببيان معانيه على وجه التفصيل كلمة كلمة، وآيَةً آيَةً، وسورةً سورةً، وله شروط ذكرها العلماء في مؤلِّفاتهم، كالسيوطي

في: "التحبير" و"الإتقان"، وابن كثير في: "مقدمة تفسيره"، وابن تيمية في: "مقدمة في أصول التفسير"، وابن عاشور في: "المقدمات العشر"، وخالد السبت في: "قواعد التفسير" وغيره، هذا لأنّه الرواية عن الله أو التوقيع عن ربّ العالمين كما عنون به ابن القيم كتابه القيم: "إعلام الموقعين عن ربّ العالمين"، ومن هذه الشروط التي ذكرها العلماء أن يكون المفسّر عارفاً بعلوم اللّغة العربيّة من نحو واشتقاق وتصريف وبلاغة، وعارفاً بالقرآن وعلومه كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والقراءات القرآنية وغير ذلك، وعارفاً بأصول الدّين والفقه، وعارفاً بالأحاديث والآثار المتعلّقة بتفسيره... وغيرها من العلوم التي لا بدّ من توفّرها في مفسّر القرآن.

ويمكننا الآن تلخيص أهم الفروقات بين التدبّر والتفسير في ثلاث نقاط رئيسية:

- أولاً: التفسير هو الكشف عن معنى الآيات، والتدبّر هو استخراج هدايات الآيات.
- ثانياً: المفسّر غرضه العلم بالمعنى، والمتدبر غرضه العمل بما علم.
- ثالثاً: التفسير مأمور به العلماء بحسب الحاجة وهو كفائيّ، وأما التدبر فأمر به عامة الناس وهو عينيّ.

- رابعاً: شروط التفسير روعي فيها التخصّص، بينما شروط التدبّر ليس كذلك.

أ- **التدبّر عند اللّغويين**: تدور مادة الكلمة حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها،

فأصل التدبّر كما جاء في معجم مقاييس اللغة من: "دَبَرَ - بفتح الدال والباء-، وجُلّه في قياس واحد، وهو: آخر الشيء، وخلفه: خلاف قُبْلَه" ⁶، وجاء في لسان العرب: "دَبَرَ الأمر وتدبّره أي نظري عاقبته وعرف الأمر تدبّراً أي بآخره؛ فتدبر الكلام أي النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة.. والتدبر في الأمر: التفكّر فيه" ⁷، وأمّا في مختار الصحاح: "تدبير الأمر: النّظر إلى ما تؤوّل إليه عاقبته، والتدبّر: التفكّر فيه" ⁸، بينما في المعجم الوسيط: "تدبّر الأمر: ساسه ونظر في عاقبته" ⁹. وقد عبّر السّلف عن التدبّر بألفاظ أخرى متقاربة وهي: التفكّر والتذكّر والنّظر والتأمّل والاعتبار والاستبصار، قال ابن القيم: "وَهَذَا يَسْعَى تَفَكُّراً وَتَذَكُّراً وَنَظْراً وَتَأَمُّلاً وَاعْتِبَاراً وَتَدَبُّراً وَاسْتِبْصَاراً وَهَذِهِ مَعَانٍ مُتَقَارِبَةٌ تَجْتَمِعُ فِي شَيْءٍ وَتَتَفَرَّقُ فِي آخَرٍ، وَيَسْمَى:

- تفكّراً لأنّه اسْتِعْمَالُ الْفِكْرَةِ فِي ذَلِكَ وَإِحْضَارُهُ عِنْدَهُ.

- وتذكّراً لأنّه إِحْضَارُ لِلْعِلْمِ الَّذِي يَجِبُ مِرَاعَاتُهُ بَعْدَ دُخُولِهِ وَغَيْبَتِهِ عَنْهُ.

- وَنَظْراً لِأَنَّهُ التَّنَقُّلُ بِالْقَلْبِ إِلَى الْمَنْظُورِ فِيهِ.

- وَتَأْمَلُ لِأَنَّهُ مُرَاجَعَةٌ لِلنَّظَرِ كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ حَتَّى يَتَجَلَّى لَهُ وَيُنْكَشِفَ لِقَلْبِهِ.
- وَاعْتِبَاراً لِأَنَّهُ يَعْبُرُ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ فَيَعْبُرُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي قَدْ فَكَّرَ فِيهِ إِلَى مَعْرِفَةٍ ثَالِثَةٍ.
- وَتَدَبُّراً لِأَنَّهُ نَظَرٌ فِي أَدْبَارِ الْأُمُورِ وَهِيَ أَوَاخِرُهَا وَعَوَاقِبُهَا.
- وَاسْتِبْصَاراً وَهُوَ اسْتِفْعَالٌ مِنَ التَّبَصُّرِ وَهُوَ تَبَيُّنُ الْأَمْرِ وَانْكَشَافُهُ وَتَجْلِيهِ لِلْبَصِيرَةِ¹⁰.

ب- **التدبر عند المفسرين**: عبّر مفسّرو السلف والخلف عن معنى تدبر القرآن الكريم بعبارات متقاربة نجملها كالآتي:

- قال الرّمخسري: "فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصّر ما فيه"¹¹.
- وقال أبو حيان: "هو التفكّر في الآيات، والتأمّل الذي يفضي بصاحبه إلى النّظر في عواقب الأشياء"¹².
- وقال الخازن: هو تأمل معانيه، وتفكّر في حكمه، وتبصّر ما فيه من الآيات¹³.
- وقال ابن القيم: هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعلّقه¹⁴.
- وقال حبنكة الميداني: "التدبر هو التفكّر الشّامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميهِ البعيدة"¹⁵.
- وقال مساعد بن سليمان الطيّار: هو إعمال الذهن بالنظر في آيات القرآن، للوصول إلى معانيها، ثم النظر إلى ما فيها من الأحكام والمعارف والعلوم والعمل¹⁶.
- وقال فهد بن المبارك الوهبي: "هو تأمل القرآن بقصد الاتّعاظ والاعتبار والاستبصار"¹⁷.

من خلال ما سبق طرحه يمكن القول بأنّ تدبر القرآن هو: "عملية تأملية شاملة لآيات القرآن الكريم تهدف إلى تفهّم معانيه والعمل بهداياته، ويشترك في هذه العملية اللسان والعقل والقلب والأعضاء، فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظّ العقل فهم المعاني، وحظّ القلب الاتّعاظ والاعتبار، وحظّ الأعضاء الانتمار والانزجار، فاللسان يرتّل، والعقل يترجم، والقلب يتّعظ، والأعضاء تعمل".

ج- **أهمية تدبر القرآن الكريم**: يمكن إجمال أهمية تدبر القرآن الكريم في النقاط الآتية:

- 1- قراءة القرآن أو سماعه بتدبر يعين على فهم معاني القرآن الكريم، ومن ثم التأثير بها روحياً والعمل بها انتماراً وانزجاراً، قوله ﷺ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: 16-19].

2- قراءة القرآن أو سماعه بتأمل يورث معرفة الله وتعظيمه، ومن ثم يعقل النفس من الوقوع في المهالك، قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

3- قراءة القرآن أو سماعه بتفكير مهدي إلى معاني الإيمان ويزيدها، ومن ثم عدم الشعور بالملل عند كثرة ترده، قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُم زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124]، وقوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2].

4- قراءة القرآن أو سماعه بتذكّر يلين القلوب ويطمئنها، ومن ثم يبعث فيها روح الخشية والخوف والرجاء والوجل، قوله ﷺ: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]، وقوله ﷺ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83].

5- قراءة القرآن أو سماعه بتبصّر واجب شرعيّ على البشر جميعاً لهدايتهم وإرشادهم، لقوله ﷺ: ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلْوَابًا﴾ [ص: 29]، وقوله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. قال القرطبي: "إنه لا عُذْرَ فِي تَرْكِ التَّدْبِيرِ، فَإِنَّهُ لَوْ خُوِطِبَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْجِبَالُ - مَعَ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ فِيهَا - لَانْقَادَتْ لِمَوَاعِظِهِ، وَلِرَأْيَيْهَا - عَلَى صَلَابَتِهَا وَرِزَانَتِهَا - خَاشِعَةً مُّتَصَدِّعَةً، أَيْ: مُتَشَقِّقَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ"¹⁸.

6- قراءة القرآن أو سماعه بالتفهّم لمعانيه وما أريد به، يستوجب محبة الله للعبد، وقد عدّه ابن القيم في كتابه "مدراج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" أوّل الأسباب العشرة الجالبة للمحبة والموجبة لها، قال: "قراءة القرآن بالتدبّر والتفهّم لمعانيه وما أريد به، كتدبّر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهّم مراد صاحبه منه"¹⁹.

7- قراءة القرآن بتدبر يوقظ القلب وتتحرّك به جميع مشاعر الإنسان، وقد أشار سيد قطب إلى هذا المعنى بقوله: "وتدبر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير"²⁰.

8- قراءة القرآن أو سماعه بالتدبر والتفكير أنفع للقلب، وأدعى إلى حُصُول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وقد عبّر ابن القيم عن هذا بقوله: " فَلَا شَيْءَ أَنْفَعَ لِلْقَلْبِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ فَإِنَّهُ جَامِعٌ لِجَمِيعِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ وَاحْوَالِ الْعَامِلِينَ وَمَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ وَهُوَ الَّذِي يُورِثُ الْمَحَبَّةَ وَالشُّوقَ وَالْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ وَالْإِنَابَةَ وَالتَّوَكُّلَ وَالرِّضَا وَالتَّفْوِيزَ وَالشُّكْرَ وَالصَّبْرَ وَسَائِرَ الْأَحْوَالِ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ وَكَمَالُهُ وَكَذَلِكَ يَزْجُرُ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ وَالَّتِي بِهَا فَسَادُ الْقَلْبِ وَهَلَاكُهُ فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ لَاشْتَغَلَوْا بِهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا فَإِذَا قَرَأَهُ بِتَفَكُّرٍ حَتَّى مَرَّ بِآيَةٍ وَهُوَ مُخْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِفَاءِ قَلْبِهِ كَرَّرَهَا وَلَوْ مِائَةَ مَرَّةٍ وَلَوْ لَيْلَةً فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بِتَفَكُّرٍ وَتَفْهِيمٍ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خِتْمَةٍ بِغَيْرِ تَدْبِيرٍ وَتَفْهِيمٍ وَأَنْفَعُ لِلْقَلْبِ وَأَدْعَى إِلَى حُصُولِ الْإِيمَانِ وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ"²¹.

3. مَقُومَات تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الفرع الأول: مفهوم المَقُومَات وأهميتها

أ- **المَقُومَات عند اللغويين:** أصلها من القوام، وقوام الأمر، بالكسر: نظامه وعماده، قال أبو عبيدة: هو قوام أهل بيته وقيام أهل بيته، وهو الذي يقيم شأنهم، ويقال: هذا قوام الأمر وملاكه الذي يقوم به، وَقَوْمٌ دَرَاهُ: أزال عِوَجَهُ²²، و(قياماً) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: 5/4] "ما به يتقوّم المعاش"²³، و(قياماً) في الآية أصله: قواماً، فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وهو ملاك الأمر وما يقوم به الأمر، وأراد هاهنا قوام عيشكم الذي تعيشون به، قال الضحّاك: به يقام الحج والجهاد وأعمال البروبه فكأن الرقاب من النار²⁴، و(أقوم) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9/17] "الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، وقال الزجاج: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله، وقاله الكلبي والفراء"²⁵.

ب- **المَقُومَات في اصطلاحنا:** هي العوامل الأساسية التي بها تقوم عملية تدبر القرآن الكريم، وبناتفائها جزئياً أو كلياً ينتفي التدبر جزئياً أو كلياً.

ج- **أهمية معرفة المَقُومَات:** تبرز أهمية معرفة المَقُومَات من خلال ما يأتي:

- 1- تحقيق تدبر القرآن الكريم يستلزم معرفة مقوماته وموجباته، وجعلها يحول دون تحقيق التدبر.
- 2- معرفة المَقُومَات وتحقيقها يعين على تطهير القلب من جميع الشوائب والأمراض.

3- معرفة المقومّات وتطبيقها لتحقيق المقصد الأسنى من إنزال القرآن الكريم، قال جلّله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، قال ابن عطية الأندلسي: "وظاهر هذه الآية يعطي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن"²⁶.

4- معرفة المقومّات يعين على تحقيق التدبر، وتالياً فإطلاق حكم الوجوب على تدبر القرآن وتفهم معانيه يستلزم وجوب معرفة المقومّات والموجبات التي تساعد المرء على تحقيق التدبر، إذ لا معنى للتدبر، إذا لم تتقّى العوائق والصّوارف.

الفرع الثاني: مقومّات تدبر القرآن الكريم

لما كان من الأهميّة بمكان ضبط مقومّات تدبر القرآن الكريم، فإننا سنبينها كالآتي:

المقوم الأول: حضور القلب مع كمال المعرفة

لقوله جلّله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]، أي: "استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبّه"²⁷، وقال يحيى بن معاذ: "القلب قلبان، قلب محتش بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من الأمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة"²⁸. ويفهم من الآية أنّه ينبغي أن يكون حضور القلب حضوراً حقيقياً عند تلاوة القرآن الكريم أو سماعه، لا مجرد حضور صوري لا يفقه شيئاً مما يتلو أو يتلى عليه من آيات بيّنات. وبهذا الاعتبار، فالقلب بمثابة الرادار في جسم الإنسان، فإذا كان عمل الرادار يتمثل في عملية حراسة ومراقبة الخطر الخارجي والتبليغ عنه الجهات المعنية بدفعه وإبعاده، فإنّ القلب يتمثل في عملية مراقبة سلوك الإنسان ورسم الطريق القويم التي ينبغي لسائر أعضاء الجسم اتباعها ومحاربة كل ما سبيله الانحراف عن الجادة، فإذا تعطلّ الرادار عن أداء مهامه التي أنيطت إليه فإنّه الخراب والدمار والشرّ والفساد، كذلك إذا تعطلّ القلب عن أداء مهام الهداية والإدراك والخير والإيمان التي أوكلت له فإنّه الضلال والخراب والغيّ والشرّ والإثم والفساد في كل أنحاء الجسم.

المقوم الثاني: قدر من الفهم للآيات المتلوة أو المسموعة

لقوله جلّله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [الفر: 17]. قال ابن جرير الطبري في تفسيرها: "ولقد سهّلنا القرآن، بيّناه وفصّلناه للذكر لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويتعظّ، وهوناه... فهل من معتبر متعظ يتذكّر بما فيه من العبر والذكر؟"²⁹. وهذا القدر من الفهم يحصل بمطالعة كتب التفاسير المختصرة من مثل: "المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير" تأليف مجموعة من

علماء الهند بإشراف صفی الرحمن المبارکفوري، "تفسير الجلالين" لجلال الدین المحلی، وجلال الدین السيوطي، "الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لعلي بن أحمد الواحدي، "الوجيز في تفسير القرآن الكريم" لشوقي ضيف (معاصر)، "التفسير الميسر"، تأليف نخبة من العلماء المعاصرين، "التفسير الواضح الميسر" لمحمد بن علي الصابون (معاصر)، "المعين على تدبر الكتاب المبين" لمجد مكي (معاصر)، وغيرها، مع التذكير أيضاً أنه ثمة آيات قرآنية لا يحتاج في معرفة معناها إلى كثير عناء من مثل مطالعة كتب التفسير، ومعرفة علم الأصول وعلم النحو وغير ذلك، وإنما يرجع إلى مدى حضور القلب وكمال معرفته، لذا فلا عذر لأحد في ترك التدبر والتفكير والتأمل والتذكر والاتعاظ بالآيات القرآنية، قال الصنعاني: "إن كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لا يحتاج في معناها إلى علم النحو وإلى علم الأصول بل في الأفهام والطباع والعقول ما سارع به إلى معرفة المراد منها عند قرعها الأسماع من دون نظر إلى شيء من تلك القواعد الأصولية والأصول النحوية.. ولذا ترى العامة.. يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويكون لقوارعه وما حواه ولا يعرفون إعراباً ولا غيره.. بل ربما كان موقع ما يسمعون في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد وبلغ غاية الذكاء والانتقاد.."³⁰.

المَقُومُ الثالث: القراءة بترتيل

لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل 20]، وقوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: 4]. وترتيل القرآن: "قراءته على تَوَدُّة بتبيين الحروف، وحفظ الوقوف، وإشباع الحركات، وهو تأكيد في إيجاب الأمر به وأنه لا بد منه للقارئ"³¹. والتَوَدُّة هي الترسُّل في القراءة وعدم الإسراع فيها، لذا قال ابن عباس: "لأن أقرأ البقرة أرتلها، أحبَّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله"³². وفي الصحيح عن قتادة: "سئل أنس كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كانت مدّاً، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1] يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم"³³، وقد نبّه الأئمة الشنقيطي عن مسألة إعطاء المدّ حقّه فقال: "إنّ للمدّ حدوداً معلومة في التجويد حسب تلقي القراء - رحمهم الله -، فما زاد عنها فهو تلاعب، وما قلَّ عنها فهو تقصير في حقّ التلاوة"³⁴. إذن فالترسُّل في قراءة القرآن الكريم وعدم الإسراع فيها وعدم الإخلال بأحكام التجويد يعين المرء على تدبر القرآن الكريم والتفاعل مع أحداثه والعيش في ظلاله، إذ الترسُّل في القراءة يعطي التالّي الوقت الكافي للوقوف على أي القرآن الكريم تأملاً وتدبراً وتذكراً وتبصراً، فإذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح الله ونزّهه عما نسبّه إليه أهل الكتاب ومن سار على دربهم، أو تحميد حمد الله على جميع نعمه ما ظهر منها وما بطن، أو تكبير كبير الله وعظمه واستصغر كل أمور الدنيا، أو تهليل لله

وأفرده بالآلوهية والعبودية والحاكمية ومصدر التلقي، أو آيات ذكر الجنة والنار سائلاً المولى الفوز بالجنة والنجاة من النار، أو آيات ذكر قصص المرسلين والصالحين والأُمم الخالية مقتدياً ومتأسياً بسيرة المرسلين والصالحين، ومعتبراً بما حلَّ بالأُمم الماضية من أنواع النعم أو أنواع النقم ليتخذ بأسباب نيل النعم والبعد عن أسباب نيل النقم.

المَقُوم الرابع: الاستماع من الغير بإنصات

لقوله ﷺ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]، قال ابن كثير في تفسيرها: "أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظماً له واحتراماً"³⁵. والإنصات في اللسان: "هو السكوت والاستماع للحديث.. وأنصت ينصت إنصاتاً إذا سكت سكوت مستمع، وقد أنصت وأنصته إذا أسكته"³⁶. ويفهم من الآية أنَّ كمال التدبُّر لا يحصل بمجرد الاستماع إلى تلاوة القرآن فقط، ولكن لا بدَّ من السكوت عند سماع تلاوته أو ترك مواطن التشويش. وقد كان هديه صلى الله عليه وسلم الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم بإنصات وخشوع، روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: «اقرأ علي»، قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك، وعليك أنزل، قال: «نعم» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]، قال: «حسبك الآن» فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان³⁷. هذا "فالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له - حيثما قرئ - هو الأليق بجلال هذا القول، وبجلال قائله سبحانه!"³⁸.

ومع توقُّر هذه الشُّروط بمجموعها يحصل التدبُّر الكامل للقرآن الكريم.

4. معوّقات تدبُّر القرآن الكريم

إنَّ الحديث عن عوائق تدبُّر القرآن الكريم، يرجع بنا إلى الوراء لاستدكار الحديث عن مقوماته، هذا وإنَّ انتفاء مقومات التدبُّر يستلزم عدم حصول التدبُّر، وبذلك نستطيع أن نتعرّف على كثير من العوائق والصّوراف والشّواغل والمثبّطات، وسنعرض هذه المعوّقات في أربع نقاط رئيسة، علماً أنّه كلّما انتفى مقومٌ، كلّما قلَّ التدبُّر، إلى أن يذهب التدبُّر كليّة إذا انتفت المقومّات كلّها.

الفرع الأوّل: مفهوم المعوّقات وأهمّيّتها

أ - المعوّقات عند اللّغويين: عاقه عن الشيء يعوقه عوقاً: صرفه وجبسه، ومنه التعويق والاعتياق، وذلك إذا أراد أمراً فصرفه عنه صارف العوق: الأمر الشاغل، وعوائق الدهر: الشواغل من أحداثه. والتعوق:

التَّبَيُّط، والتَّعْوِيق: التَّثْبِيطُ³⁹، و"عَوَّقَ يَعْوِقُ، تَعْوِيقًا، فَهُوَ مُعَوَّقٌ، وَالْمَفْعُولُ مُعَوَّقٌ، عَوَّقَهُ زَائِرٌ: عَاقَهُ، أَخَّرَهُ وَشَغَلَهُ، وَعَوَّقَهُ عَنِ الْأَمْرِ: عَاقَهُ، مَنَعَهُ مِنْهُ وَشَغَلَهُ عَنْهُ"⁴⁰، وفي التَّنْزِيلِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 18]؛ قال الزمخشري: "المُعَوِّقِينَ: الْمُثَبِّطِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ"⁴¹.

ب- **المُعَوَّاتَات فِي اصطلاحنا:** هي الشَّوَاعِل والصَّوَارِف والمُثَبِّطَات التي تحول دون تحقيق التدبُّر.

ج- **أهمية معرفة المعوَّاتَات:** تبرز أهمية معرفة المعوَّاتَات من خلال ما يأتي:

1- تحقيق تدبُّر القرآن لا يكفي بتحقيق شروطه وموجباته، بل لا بدَّ من معرفة المعوَّاتَات التي تحول دون تحقيقه.

2- معرفة العوائق وإزالتها لتطهير القلب من جميع الشوائب والأمراض.

3- معرفة العوائق وإزالتها لتجنُّب الوقوع فيها، فعن أبي إدريس الخولاني، أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: "كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني"⁴².

4- معرفة العوائق وإزالتها لتحقيق المقصد الأسنى من إنزال القرآن الكريم، قال جلاله: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، قال ابن عطية الأندلسي: "وظاهر هذه الآية يعطي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن"⁴³.

5- معرفة العوائق يستلزم تحقيق التدبُّر، وتالياً فإطلاق حكم الوجوب على تدبُّر القرآن وتفهم معانيه يستلزم وجوب معرفة الشَّوَاعِل والصَّوَارِف والمُثَبِّطَات التي تحول بين المرء وقلبه في تحقيق التدبُّر، إذ لا معنى للتدبُّر، إذا لم تتقى العوائق والصَّوَارِف.

الفرع الثاني: معوَّاتَات تدبُّر القرآن الكريم

إنَّ ما ذكر من الشُّرُوط الرِّئِيسَة للتدبُّر، سبق أن نَهِينَا بِأَنَّهُ إِذَا تَخَلَّفَ شَيْءٌ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ صَارِفًا عَنِ التَّدَبُّرِ جُزْئِيًّا أَوْ كَلِيًّا، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْبَاحِثَ سَيَقْتَصِرُ عَلَى ذِكْرِ بَاجِمَالِ أَهَمِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَائِقًا دُونَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَعَلَّ أَبْرَزَ هَذِهِ الْعَوَائِقِ مَا يَأْتِي:

المُعَوِّقُ الْأَوَّلُ: غِيَابُ الْقَلْبِ

لَا شَكَّ أَنَّ الْقَلْبَ هُوَ الْعَضْوُ الْأَسَاسُ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ، الَّذِي إِنْ اعْوَجَّ اعْوَجَّتْ مَعَهُ سَائِرُ أَعْضَاءِ الْجِسْمِ، وَإِنْ اسْتَقَامَ اسْتَقَامَتْ، لَمَّا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ".. ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"⁴⁴، والقلب الغائب هو القلب غير المتدبّر للآيات المتلوّة أو المسموعة نظراً لانشغاله عنها بغيرها، وقد جاء التعليل عن غياب القلب في حديث مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأیما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأیما قلب رفضها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصبح القلوب على قلبين: قلب أبيض خالصاً، وقلب أسود مرّاداً كالکوز مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً"⁴⁵، وفي حديث الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَأَلَا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح"⁴⁶، وقد ذكر القرآن الكريم جملة من الأسباب الموجبة لصرف القلب وصده عن تدبّر القرآن الكريم، وتفهم معانيه، والعمل به، من ذلك: الختم، المرض، القسوة، الغلف، العصيان، التكبر، الإثم، الزينغ، الغلظة، النفاق، الطبع، الجهل، الغيظ، الغفلة، اللهو، العبي، القفل، الغل، التشتت، الران. ونورد هنا تقسيم ابن القيم النّاس عند سماعهم القرآن الكريم بين حاضر القلب من عدمه إلى ثلاثة أنواع:

"الأول: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقّه.

الثاني: رجل له قلب حيّ مستعد، ... ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعداد وجود قلبه.

الثالث: رجل حيّ القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملقى السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات... " ⁴⁷.

ولعلّ من أهمّ مظاهر غياب القلب:

- 1- عدم تهيئة النفس روحياً وجسدياً لتلاوة القرآن الكريم.
- 2- العزم على ارتكاب المعاصي مع شرود الدّهن.
- 3- اقتراف الذنوب والإصرار على فعل المنكرات.
- 4- إيثار محابّ الدّنيا على محابّ الأخرى.

- 5- عدم استحضار أنَّ القرآن كلام الله المخاطَّب به.
- 6- عدم استشعار نعمة العيش في ظلال القرآن الكريم.
- 7- الجري وراء الشهوات الدنيوية الجارفة والاهتمام بها، والانصراف عن القرآن الكريم.
- 8- عدم التوبة والإنابة إلى الله.

المُعَوِّق الثاني: غياب الفهم

وهذا العائق لا يقلُّ أهمية عن سابقه، فبعد الناس عن اللغة العربية، وتوجَّههم للهجات العامية، أنتج صعوبات في فهم القرآن الكريم، إضافة إلى واقع مؤسسات التربية على وجه العموم لا يبتُّ في الناس أهمية تعلُّم اللغة العربية والتعامل بها في جميع الأحوال سواء داخل المؤسسة التعليمية أو خارجها، أيضاً وجود خلل في مناهج التلقِّي والتعليم في مختلف المؤسسات التربوية والتعليمية، فمنذ أن دخلت البلدان الإسلامية تحت وطأة الاستعمار الغربي، حدث الخلل في برامجها التعليمية، حيث أصبح التعليم يصبُّ في صالح المعارف الإنسانية على غرار التربية الإسلامية واللغة العربية، وهذا أثر سلباً على تعلُّم اللغة العربية وفقهها بشكل جيّد يؤهِّل الناس إلى تدبُّر كتاب الله عزَّ وجلَّ، وتفهم معانيه، والعمل بجكِّمه وأحكامه، وقد قال ابن عطية في قوله ﷺ: ﴿وَرَبَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: 4]: "والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة"⁴⁸، وقال أبو بكر بن طاهر: تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرِّك بالإقبال عليه⁴⁹.

ولعلَّ أبرز مظاهر غياب الفهم:

- 1- عدم مطالعة مختصرات تفسير القرآن الكريم، وكتب مفردات القرآن وغرائبه.
- 2- عدم حضور مجالس العلم، مع سؤال أهل العلم عمّا أشكل من معاني القرآن.
- 3- عدم التركيز أثناء تلاوة القرآن الكريم وسماعه مع شروء الدَّهْن.
- 4- عدم تقديس اللغة العربية باعتبارها المفتاح الأساس والأوحد لتدبُّر القرآن وتفهم معانيه.
- 5- الانشغال بمعرفة متشابهات القرآن الكريم عن محكماته، والجري وراء معرفة غريب ألفاظه.
- 6- ترك التدبُّر تورَّعاً عن القول في كلام الله بغير علم.
- 7- الاقتصار على إقامة الحروف، وتزيين التلاوة، وقوَّة استحضار الحفظ، على حساب تدبُّر القرآن.

8- السَّيْرُورَاءُ التَّصَوُّرَاتِ الْخَاطِئَةِ عَنِ الْقُرْآنِ، وَقَصْرُهُ عَلَى الرَّقِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَقِرَاءَتِهِ عَلَى الْأُمُوتِ، وَالتَّبَرُّكِ بِهِ، وَتَعْلِيْقِهِ لِتَزَيِّنَ بِهِ الْجَدْرَانَ.

المُعَوِّقُ الثَّالِثُ: غِيَابُ التَّرْتِيلِ

لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَهَذَا الشَّعْرِ، وَقِرَاءَتِهِ كَقِرَاءَةِ الْكُتُبِ وَالْجُرَائِدِ وَالْمَجَلَّاتِ، يَذْهَبُ جَمَالُ الْقُرْآنِ وَهَيْبَتُهُ وَإِعْجَازُهُ، لِذَا فَقَدْ وَرَدَ النَّبِيُّ عَنِ الْهَدِّدِ فِيمَا رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: "لَا تَهْدُوا الْقُرْآنَ، كَهَذَا الشَّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقْلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ"⁵⁰، وَعَنْهُ أَيْضاً قَالَ: "مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ، فَهُوَ رَاجِزٌ"⁵¹، وَقَالَ الرَّازِيُّ: وَالْإِسْرَاعُ فِي الْقِرَاءَةِ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْوُقُوفِ عَلَى الْمَعَانِي، لِأَنَّ النَّفْسَ تَبْتَهِجُ بِذِكْرِ الْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ، وَمَنْ ابْتَهَجَ بِشَيْءٍ أَحَبَّ ذِكْرَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئاً لَمْ يَمَرَّ عَلَيْهِ بِسُرْعَةٍ⁵².

وَلَعَلَّ مِنْ أَهَمِّ مَظَاهِرِ غِيَابِ التَّرْتِيلِ:

- 1- السَّرْعَةُ فِي تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِأَجْلِ الْخَتْمِ.
- 2- اعْتِقَادُ أَنَّ تَرْتِيلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَقْصُورٌ عَلَى الْمُتَخَصِّصِينَ فِي مَجَالِ الْقُرْآنِ وَعِلْمِهِ.
- 3- عَدَمُ مِرَاعَاةِ قَوَاعِدِ التَّرْتِيلِ أَثْنَاءَ تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
- 4- الْإِنْشَاغَالُ بِمَطَالَعَةِ الْكُتُبِ وَالْمَصْنُفَاتِ بِدَلِّ تَرْتِيلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
- 5- الْاِقْتِصَارُ عَلَى تَرْتِيلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الْمُنَاسَبَاتِ فَقَطْ.
- 6- اعْتِقَادُ أَنَّ مِهْمَةَ الْقَارِئِ تَنْحَصِرُ فِي كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ طَلِباً لِلْأَجْرِ، دُونَ التَّدَبُّرِ وَالتَّخَشُّعِ.
- 7- الْاِقْتِصَارُ عَلَى تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ مِنْ بَابِ الْعَادَةِ وَالْإِلْفِ، لَا مِنْ بَابِ كَوْنِهِ مُتَعَبِّدٌ بِتَلَاوَتِهِ.
- 8- جَهْلُ وَجُوبِ تَرْتِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا أُنْزِلَ وَكَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى.

المُعَوِّقُ الرَّابِعُ: غِيَابُ الْإِسْتِمَاعِ بِإِنْصَاتٍ

وَهَذَا الْعَائِقُ لَا يَقِلُّ أَهْمِيَّةً عَنْ سَابِقِهِ مِنْ حَيْثُ هَذَا التَّرْتِيبُ، حَيْثُ أَنَّ حَالِ الْمَرْءِ تَجَاهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، يَفْتَرِضُ أَنْ يَكُونَ:

- تَالِيّاً لَهُ مُنْصَتّاً لَهُ.
- أَوْ مُجَرِّدَ مُنْصَتٍّ لِمَنْ يَقُومُ بِتَلَاوَتِهِ.

وفي كلّ خير ما دام السَّماع بإنصات، وإن كان حال الأول أرجح أجراً من حال الثاني، لأنّ الأول حقّق الإنصات إلى جانب التلاوة، بينما الثاني لم يحقّق إلاّ الإنصات.

ولعلّ أبرز مظاهر غياب الاستماع بإنصات:

- 1- عدم اختيار الوقت والحال الأصلح لسماعه كسماعه أثناء المذاكرة والعمل.
- 2- عدم اختيار المكان الأنسب للتلاوة، كتلاوته في الأسواق ومكتب العمل وأماكن التشويش.
- 3- التحدّث أثناء سماع قراءة القرآن.
- 4- تركيز السَّمع كلّهُ على إنصات الأصوات الجميلة، بدل التركيز على تفهّم معانيه الدّقيقة.
- 5- تركيز السَّمع كلّهُ على إنصات كَيْفِيَّة تحقيق حروفه، وتخريج مخارجه.
- 6- حصر سماعه بإنصات عند بعض مواسم العبادة التي تتكرّر سنوياً.
- 7- الاقتصار على سماعه بإنصات عند وقوع المحن والابتلاءات الشّديدة.
- 8- الاقتصار على سماعه بإنصات في حضرة من يعظم احترامه.

الخاتمة

تبيّن من خلال هذه الدّراسة الآتي:

- التدبّر هو: عملية تأمّليّة شاملة لآيات القرآن الكريم تهدف إلى تفهّم معانيه والعمل بهدياته، ويشترك في هذه العملية اللّسان والعقل والقلب والأعضاء، فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظّ العقل فهم المعاني، وحظّ القلب الاتّعاظ والاعتبار، وحظّ الأعضاء الاتّمار والانزجار، فاللّسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتّعظ، والأعضاء تعمل.
- عبّر السّلف عن التدبّر بألفاظ أخرى متقاربة وهي: التفكّر والتذكّر والنّظر والتأمّل والاعتبار والاستبصار.
- التدبّر أمر به عامة الناس وهو عينيّ، وأما التفسير فمأمور به العلماء بحسب الحاجة وهو كفائيّ.
- يعنى بمَقُومَات تدبّر القرآن الكريم: العوامل الأساسية التي بها تقوم عملية تدبّر القرآن الكريم، وبانتفائها جزئياً أو كلياً ينتفي التدبّر جزئياً أو كلياً.
- مقوَّات تدبّر القرآن أربعة، هي: 1. حضور القلب مع كمال المعرفة 2. قدر من الفهم للآيات المتلوّة أو المسموعة 3. القراءة بترتيل 4. الاستماع بإنصات.

- یعنی بمعوّقات تدبّر القرآن: الشّواغل والصّوّارف والمثبّطات التي تحول دون تحقيق التدبّر.
- معوّقات تدبّر القرآن أربعة، هي:

1. غياب القلب،
2. غياب الفهم،
3. غياب الترتيل،
4. غياب الإنصات.

وفي نهاية المطاف يوصي الباحث بضرورة تلاوة القرآن الكريم وتدبّره، وتفهم معانيه مع التأمّن بها، والعمل على فعل أوامره، وترك نواهيه، والتنوّر بهداياته وإلهاماته، والدّعوة إلى تعاليمه على بصيرة، والجهاد به جهاداً كبيراً لا يخالطه فتور.

قائمة المراجع:

- ابن أبي شيبة، أبو بكر، مصنف بن أبي شيبة، (الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1409هـ).
- ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (بيروت: دار الكتب العلمي، ط1، 1422هـ).
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، (مصر: مطبعة البابي الحلبي، ط1، 1400هـ).
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، 1996م).
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (مصر: دار الكتاب العربي، د. ط، 1996م).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم (دار طيبة، ط2، 1999م).
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د3، 1414هـ).
- أبو البقاء الحنفي، أيوب بن موسى الحسيني القريشي الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د. ط، د. ت).
- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، (دار الفكر - بيروت، د. ط، 1420 هـ).
- أحمد مختار، عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (عالم الكتب، ط1، 2008م).
- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، (دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ).
- البيضاوي، ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418هـ).
- البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، (الرياض: مكتبة الرشد بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط1، 2003م).

- الترمذی، أبو عیسی، الجامع الصحیح سنن الترمذی، تحقیق: أحمد محمد شاکر وآخرون، (بیروت: دار إحياء التراث العربی).
- الجرجانی، علی بن محمد بن علی الزین الشریف، کتاب التعریفات، (بیروت: دارالکتب العلمی، ط1، 1983م).
- الجوزیة، ابن القيم، إعلام الموقعین عن رب العالمین، (القاهرة: دار الحديث، ط: 2002م).
- الجوزیة، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالکین بین منازل إياک نعبد وإياک نستعین، (بیروت: دار الكتاب العربی، ط3، 1996م).
- الحاكم، أبو عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، (بیروت: دارالکتب العلمیة، ط1، 1990م).
- الخازن، علاء الدین، لباب التأویل فی معانی التنزیل، (بیروت: دارالکتب العلمیة، ط1، 1415).
- الرازی، فخر الدین أبو عبد الله، التفسیر الکبیر، (بیروت: دارالکتب العلمیة، د. ت، 2004م).
- الرازی، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، (بیروت: مكتبة لبنان، ط2، 1986م).
- الرمخسری، محمود بن عمر، الکشاف عن حقائق التنزیل وعیون الأقاویل فی وجوه التأویل، (بیروت: دار الكتاب العربی، ط3، 1407 هـ).
- سعید بن منصور، أبو عثمان الخراسانی الجوزجانی، التفسیر من سنن سعید بن منصور، (دار الصمیعی، ط1، 1997م).
- سیّد قطب، فی ظلال القرآن، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربیة، ط1، 1953م).
- السیوطی، جلال الدین، الإتقان فی علوم القرآن، (بیروت: دار الفکر، 1997م).
- الشنقیطی، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجکني، أضواء البیان فی إیضاح القرآن بالقرآن، (بیروت: دار الفکر، د. ط، 1995م).
- الصنعانی، محمد بن إسماعیل، إرشاد النقاد إلى تیسیر الاجتهاد، (الکویت: الدار السلفیة، ط1، 1405هـ).
- الطبری، محمد بن جریر، جامع البیان عن تأویل آی القرآن، (دار الهجر، ط1، 2001).
- الغزالی، أبو حامد، إحياء علوم الدین، (بیروت: دار المعرفة، د. ط، د. ت).
- القرطبي، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، (القاهرة: دارالکتب المصریة، ط2، 1964م) 44.
- مجمع اللغة العربیة، تألیف مجموعة من العلماء، المعجم الوسیط، (مصر: دار الدعوة، د. ط، 1410هـ).
- مجموعة من الباحثین، أوراق عمل الملتقى العالمی الأول عن تدبر القرآن الکریم، (الریاض: مرکز تدبر للاستشارات التربویة والتعلیمیة، ط2، 2013م).
- مسلم، أبو الحسن القشیری النیسابوری، المسند الصحیح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلی الله علیه وسلم، (بیروت: دار إحياء التراث العربی، د. ت، د. ط).
- الميدانی، عبد الرحمن حسن حبنكة، التدبر الأمثل لکتاب الله عزّ وجلّ، (دمشق: دار القلم، ط4، 2009م).

- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (بيروت: دار الكلم الطيب، ط1، 1998م).
- الواحدي، أبو الحسن، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1994م).

الهوامش:

- 1- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج7، ص 251.
- 2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، 483.
- 3- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج5، ص 28.
- 4- المرجع السابق، ج5، ص 123.
- 5- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم: 2699، مج4، ص 2074.
- 6- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج2، ص 325.
- 7- ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص 268.
- 8- الرازي، مختار الصحاح، ص 83.
- 9- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 269.
- 10- يتصرف كثير: ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ج1، ص 183.
- 11- الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، ص 438.
- 12- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، ج9، 153.
- 13- الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج1، ص 402.
- 14- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج1، ص 451.
- 15- الميداني حبكة، التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ص 10.
- 16- مجموعة من الباحثين، أوراق عمل الملتقى العالمي الأول عن تدبر القرآن الكريم، ص 77.
- 17- المرجع السابق، ص 97.
- 18- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص 44.
- 19- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج3، ص 18.
- 20- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج6، ص 1556.
- 21- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ج1، ص 187.
- 22- انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص 499.
- 23- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص 235.
- 24- البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج1، ص 567.
- 25- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 225.
- 26- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص 503.

- 27- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7، 409.
- 28- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص 23.
- 29- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج22، ص 130.
- 30- الصنعاني، إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، فصل منع الاجتهاد كفران لنعمة الله عزَّ وجلَّ على العباد، ج1، ص 159-160.
- 31- النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج3، ص 556.
- 32- الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ج4، ص 372.
- 33- البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، ح- 5046، ج6، ص 195.
- 34- الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج8، ص 358.
- 35- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، 536.
- 36- ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص 99.
- 37- البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، ح- 5046، ج6، ص 195.
- 38- سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة الأعراف، ج2، ص 1556.
- 39- ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص 279-280.
- 40- أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، 1577.
- 41- الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، ص 529.
- 42- البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ح- 3606، ج4، 199.
- 43- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص 503.
- 44- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبأ لدينه، حديث رقم: 52، مج1، ص 21.
- 45- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأرز بين المسجدين، حديث رقم: 144، مج3، ص 57.
- 46- الترمذي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين، ح-: 3334، ج5، ص 434.
- 47- ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج1، ص 441.
- 48- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج5، ص 387.
- 49- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص 38.
- 50- ابن أبي شيبة، مصنف بن أبي شيبة، ح- 8733، ج2، ص 256.
- 51- سعيد بن منصور، التفسير من سنن سعيد بن منصور، ح- 148، ج2، 447.
- 52- الرازي، التفسير الكبير، ج30، ص 683.